الفصل الثاني
وسائل النهضة الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسي، ونزعة الاستقلال عند محمد علي، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها – تلك الومضات هي الوسائل التي تذرع بها رأس الأسرة العلوية ووراثة على عرش مصر إلى ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر، وأهم تلك الوسائل:

1 – المدارس

لم يجد محمد علي فيما يعلم يومئذ بالأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة، فأنشأ المدارس العلمية المختلفة وقسمتها إلى ابتدائية وتجهيزية وخاصة، ووصل بينها وبين أوربا بجلب العلماء منها وبعث البعوث إليها. فلما تعددت درجاتها وتنوعت أغراضها أنشأ لها إدارة خاصة في سنة 1839 سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختار بك من رجال البعثة العلمية الأولى. ومن أقوى المدارس الخاصة أثر في النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم. فأما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش سنة 1836 في أبي زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتمرين الطلاب ومعالجة المرضى. واستقدم أساتذتها من فرنسا برياسة الدكتور كلوت بك، واختير طلبتها من المصريين وغيرهم. ثم نقلت في سنة 1838 إلى قصر ابن العيني بالقاهرة وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل في إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة؛ لأن الأساتذة كانوا يلقون دروسهم باللغة الفرنسية ثم تؤدي في الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة العربية، وكان ذلك يضطر المترجمين من المغاربة واللبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات في المعجمات اللغوية والكتب الفنية القديمة.

وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد علي لتخريج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم في ترجمة الدروس إلى الطلاب، ونقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية. وجعل إدارتها إلى المرحوم رفاعة بك الطهطاوي حتى إذا خرجت طائفة من أفاضل المترجمين تألف منهم قلم للترجمة سنة 1842 برياسة رفاعة بك اضطلع بترجمة كثير من الكتب العلمية الأجنبية في مختلف العلوم الحديثة.

وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم علي مبارك باشا في سنة 1871م بأمر الخديوي إسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية، ويشاركوا في بعض العلوم الدينية والعقلية، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة، وليعلموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين في مدارس الحكومة. وكان أساتذتها من نابغي شيوخ الأزهر، وتلاميذها من متقدمي طلابه. ولهذه المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ في ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى على ألسنة خريجيها وأقلامهم في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة. وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدي رسالتها حتى ألحقت بجامعة القاهرة سنة 1956 وسميت كلية دار العلوم.

2 - الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع في القاهرة، وأقدم مدرسة في مصر، ومن أعرق الجامعات الكبرى في العالم بناه جوهر الصقلي بعد ما خط القاهرة، لإقامة الشعائر الدينية وتأييد الشيعة العلوية من طريق الدين. وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض، وأدر عليهم أخلاف الرزق، ورفع عنهم أكلاف الحياة، دون حساب ولا تقرير، حتى يعقوب ابن كاس وزير العزيز بالله، وهو يهودي قد اسلم وتفقه، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن على مقربة من الجامع. ثم اخذ هؤلاء الفقهاء يقرءون بعد كل صلاة فقه الشيعة، ويأخذون في سبيل الوعظ، ويميلون إلى شيء من البحث، ويتكلمون في مسائل اللغة والنحو، ويعقدون فيه مجلس المناظرة، حتى دالت دولة الفاطميين، وغلب على مصر زعيم الأيوبيين صلاح الدين الأيوبي سنة 517 وهو من أهل السنة

فبايع العباسيين، وأحل الفقه الشافعي محل الفقه الشيعي في الأزهر. وقرر فيه كذلك فقه أبي حنيفة لأنه مذهب الخلفاء في بغداد. ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المسلمين كافة فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه. وجر ذلك إلى بسط العلوم اللغوية والأدبية والإلمام بالعلوم الرياضية الطبيعية. وزها الأزر في عهد المماليك بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر، فحفظ اللغة من الزوال وعلومها من الاضمحلال. وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامي، لا يخرج عالم إلا منه، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه وحتى أدركته الغفوة الشرقية العامة في عهد بني عثمان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم، باق على مذهبه المورث. ومع ذلك فقد كان رجاله في صدر العصر الحديث عدة نابليون في تنظيم عمله، وساعد محمد علي في تحقيق أمله، وموثل اللغة والدين والآداب من عصف المحن وطغيان الجهالة وتغلب الأمية. ولكن مصر هبت من رقادها، ولم تجد الأزهر كما كان كفؤاً لقيادتها وإرشادها، فولت وجهها شطر الغرب تكرع من حياضه. وتقطف من رياضه، حتى اتسعت مسافة الخلف بين التعليم الجديد والتعليم القديم، وانتشرت في مصر ثقافتان تناهض إحداهما الأخرى. ثقافة قائمة على الكتب القديمة والطرق العقيمة، وثقافة مبنية على العلم الغربي والتعليم الحديث؛ فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشارك في النهضة العامة). بدأت الحكومة الخديوية ذلك في عهد شيخه الشيخ الأنبابي سنة 1305 هـ فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بعد لأى ومشقة وفتوى شرعية. ثم تصدى الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه، فوضع الأساس، وحال الأزهريون بينه وبين البناء: ولكن السيل جارف والتيار قوي فلم يستطع أهله الوقوف في سبيله؛ فألقوا السلاح، وقبلوا الإصلاح، ولكن إصلاحه استعصى على المصلحين لعوامل سياسية وأخرى دنيوية. فآثروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن.

ثم قسم الأزهر الآن إلى معاهد للتعليم الابتدائي، وأخرى للتعليم الثانوي، وجعل التعليم العالي فيه فروعاً، فكلية للشريعة، وكلية للغة العربية، وكلية لأصول الدين؛ وقد أنشأت لهذه الكليات دور خاصة منفصلة من الأزهر.

ونمت موارده حتى بلغت في العام مئات الألوف من الجنيهات، وزاد طلابه حتى نيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والمسكن ومن بينهم العربي والتركي والسوداني والمغربي والإيراني والسعودي والعراقي والهندي والباكستاني والإندونيسي والشركسي والأفغاني وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتغذون بالثقافة الإسلامية، ولهؤلاء أقيمت مدينة على القرب من الأزهر يجد فيها الطلاب الأعزاب الغذاء والمأوى.

3 – الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذي بدأ من المحتلين في سياسة التعليم بمصر وحصره في دائرة ضيقة من نواحي الثقافة، وقصره على تخريج الموظفين للحكومة، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا هم بتعليم أولادهم، وأن يقيموا للعلم الصحيح وزناً في بلادهم، فاجتمعت طائفة منهم سنة 1906 على إنشاء جامعة أهلية تقضي حاجة البلاد من التعليم. وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا المسعى الخطير، فلبى المحسنون النداء وفي طليعتهم الأميرة فاطمة بنت إسماعيل. وفي سنة 1908 افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رياسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوي على عرش مصر. فاستقدم إليها طائفة من علماء أوربا، واختار لها صفوة من أدباء مصر، فألقوا على طلبتها من الأزهريين والموظفين محاضرات قيمة في الآداب والفلسفة: وكان من بين العلماء الأوربيين المستشرقون جويدي ونلينو ولتمان فنهجوا لدراسة الأدب العربي وتاريخه المنهج القويم الواضح.

وفي سنة 1925 تولتها وزارة المعارف فشادت لها الأبنية العظيمة، واقتبست لها الأنظمة الأوربية الحديثة، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيدلة وطب الأسنان، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب، ثم سميت بجامعة القاهرة. ولما اشتدت الرغبة في التعليم وازداد عدد الطلاب أنشئت في الإسكندرية جامعة ثانية سميت بجامعة الإسكندرية. وأقيمت في القاهرة جامعة ثانية سميت

بجامعة عين شمس: وفي أسيوط جامعة رابعة سمين بجامعة أسيوط. مما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع جامعة الأزهر وجامعة دمشق قد آتين ثمار العلم، ونشرن أضواء الثقافة، ووصلن الماضي بالحاضر، وربطن الشرق بالغرب، وقرن العلم بالعمل، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة.

4 – الطباعة

اخترع الطباعة بالحروف " حنا جوتمبرج " الألماني سنة 1440، فكان لاختراعه من الأثر في الأدب والحضارة ما كان. وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف في أوربا حتى صيغت منها قوالب للغات الشرقية. ولاسيما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى صدرت عن أكثر العواصم الأوربية. وكان منها المؤلفات الجليلة كالعهدين القديم والجديد، ونزهة المشتاق للإدريسي. وقانون ابن سينا، وتحرير أصول إقليدس. وما زالت تطبع فيها نفائس الكتب المخطوطة إلى الآن. ثم دخلت الطباعة الشرق عن طريق الأستانة 1490م على يد عالم يهودي طبع بها مؤلفات دينية وعلمية؛ ولكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة 1708م. ومن أشهر المطابع العربية في الأستانة " مطبعة الجوائب " لأحمد فارس الشدياق؛ طبع فيها طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية. أما في البلاد العربية فكان السبق للبنان في استعمال المطبعة بفضل دعاة المسيحية؛ فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة ببيروت في أوائل القرن السابع عشر. ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة 1848م، ولها الأثر الجليل والفضل الجزيل في نشر المخطوطات العربية القديمة، وطبع الكتب الأدبية والعلمية، وإتقان فن الطباعة العربية، ثم تلت مصر لبنان فدخلها الطباعة على يد نابليون سنة 1798م، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها " المطبعة الأهلية " ثم ذهبت معه. وأقام محمد علي على أنقاضها المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة 1821. وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري، وصبت حروفها على أجمل قاعدة نسخية من حجوم مختلفة. ثم صبت ثانية على قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين في مصر، وهي المستعملة الآن. وقد طبعت ثلاثمائة كتاب في الرياضيات والطب والجراحة

مما ترجم عن اللغات الأجنبية، وطبعت أمهات الكتب الأدبية بفضل (القسم الأدبي) الذي فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية. ومنذ يومئذ اقتصرت مطبعة بولاق على طبع (الوقائع المصرية) والكتب المدرسية والأعمال الحكومية، وهي الآن أكبر مطبعة عربية في العالم. ثم انتشرت بعد ذلك المطابع في مصر فسهلت سبل الأدب وأدنت قطوف العلم، وساعدت على انتشار القراءة.

5 – الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان، ليست محصورة بين جدران، ولا يختص بها مكان دون مكان. وهي أوسع دائرة للإرشاد من كل دوائر التعليم: تهذب عقول العامة، وترتب أفكار الخاصة، وتنهض الهمم القاعدة، وتصلح الألسنة الفاسدة، وتقرب الأمم المتباعدة. وهي سجل الأحبار ووعاء التاريخ وتقويم الزمن. وأول جريدة عربية بالمعنى الفني المعروف هي الوقائع المصرية، أنشأها الأمير محمد علي سنة 1828م بمعونة الأستاذ رفاعة بك الطهطاوي، وكانت تصدر أولا بالتركية والعربية، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن العطار، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك، والإمام محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وسعد زغلول. ولا تزال تصدر عن القاهرة ثلاث مرات في الأسبوع. ثم ظهر بعد ذلك في الشام مرآة الأحوال سنة 1855م وهي سياسة يحررها رزق الله حسون الحلبي؛ وحديقة الأخبار سنة 1858م لصاحبها خليل الخوري؛ والجوائب في الأستانة سنة 1860 لأحمد فارس الشدياق؛ وجريدة الرائد التونسي في تونس سنة 1861م.

وفي زمن إسماعيل أصدر محمد علي باشا البقلي (اليعسوب) وهي مجلة طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقي وهي أول مجلة عربية ظهرت في العالم. وفي سنة 1866 ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهي وادي النيل لأبي السعود أفندي، كانت تصدر مرتين في الأسبوع بالقاهرة. وفي سنة 1869 أصدر إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة (نزهة

الأفكار) وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغاها الخديوي إسماعيل. وفي سنة 1870م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهي مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوي المكانة في العلم والأدب. ثم صدرت الأهرام سنة 1876م وسياستها عثمانية فرنسية، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية، والوطن سنة 1877م وهي جريدة طائفية احتلالية. وعلى منهاجها سارت جريدة مصر؛ والمحروسة لصاحبها أديب إسحاق سنة 1880. وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة 1888م وهي احتلالية. والمؤيد وهي إسلامية خديوية. واللواء وهي إسلامية وطنية. والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد وكوكب الشرق والمصري والكتلة والزمان والجريدة المسائية. وتلك هي كبرى الصحف اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة. وأكثرها انقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالرسالة والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير، وشهرية كالمقتطف والهلال والكتاب ومجلة الأزهر في مصر، والأديب والآداب في بيروت، ومجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجلة المجمع العلمي العربي في دمشق. وأكبر المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد احتجب لقلة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء.

والبحث في سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل. ومما لابد من ذكره أن الفضل في تقدم الصحافة ورقي التحرير والترجمة إنما كان للبنانيين، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوربية، وخلاطهم للأمم الغربية .

6 – التمثيل

التمثيل بمعناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي. وكان اللبنانيون أسبق الشرقيين إلى اقتباسه؛ لتخرجهم في المدارس الأجنبية، ودراستهم للآداب الإفرنجية. وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفى سنة 1855 فقد مثل أول رواية عربية سنة 1840م. ولما تبوأ إسماعيل عرش الخديوية شجع الأدباء، وعضد العلماء، وساعد الفنانين. وتم

حفر قناة السويس في عهده فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور. ورأى من كرم الضيافة ألا يحرم ضيوفه الأوربيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر، فابتنى دار الأوبرا الخديوية واستقدم لها فرقة أجنبية مثلت رواية (عايدة) بالفرنسية. وورد مصر في أثر ذلك جماعة من أدباء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحاق، فمثلوا في الإسكندرية بضع روايات على مسرح زيزينيا سنة 1871م ففضلوا، وتخلوا عن الفرقة لأحدهم يوسف خياط، فقدم القاهرة واتصل بإسماعيل ففتح له الأوبرا وشهد أولى رواياته، وكانت رواية (الظلوم)، فظن أنهم يعرضون به فنفاهم إلى وطنهم. وأقفلت الأوبرا في وجه التمثيل العربي فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة سليمان الفرداحي وزميله الشيخ سلامة حجازي.

ولم يكن التمثيل في تلك الفترة الماضية شعبياً، وإنما كان حكومياً أرستقراطياً لا يحضره إلا الأمراء والحكام، فلما بني اسكندر فرح مسرحه في شارع عبد العزيز بالقاهرة وضم غليه الشيخ سلامة حجازي أصبح للجمهور. وكأن التمثيل حينئذ بعيداً عن الكمال والذوق لا يرجع إلى فن ولا يعتمد على قاعدة، وإنما كان أساسه الغناء والمجون استمالة للعامة وإرضاء للدهماء، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة. وأول خطوة خطاها هذا الفن في سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التي ألفها جورج أبيض بعون الخديوي عباس حلمي، وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدهم التجارب. إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وقلة المال وزهادة الجمهور في التمثيل الفني. وظل التمثيل بعد ذلك يرسب ويطفو تبعاً للحوادث والظروف. على أن حالته الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس، فقد أنشأت وزارة الثقافة والإرشاد معهداً للتمثيل وألفت فرقة حكومية وفرقا أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوي في إنهاض المسرح بعد أن اعتدت عليها السينما وخذله الجمهور.

7 – المجامع الأدبية

المجمع العلمي العربي بدمشق

كان إخواننا في الجمهورية العربية السورية أسبق الأمم العربية إلى إنشاء المجامع العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم، كما كان اللبنانيون أسبتها إلى الترجمة والصحافة والتمثيل فقد أنشئ المجمع العلمي العربي بدمشق في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة 191م بعد دخول الأمة السورية في وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذاك " تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الآداب العربية، وتلقين أصول البحث والدرس لنبهاء الدارسين. وقد عنى هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الألفاظ في المصطلحات العلمية الحديثة، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية، وقوم ما أمكن لغة الدواوين، وصحح بعض أغلاط الكتاب والشعراء والخطباء، وعاون عدة من المؤلفين والمترجمين على ما هم بسبيله [1] " وضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء المشرقيات في أوربا. وأصدر مجلة شهرية لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته. وبعد أن اتحدت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة حينا من الدهر أصبح مجمع دمشق ومجمع القاهرة مجمعا واحدا ومؤتمر سنوي واحد.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة

وفي 14 من شعبان سنة 1315 هـ 3 ديسمبر 1932م صدر مرسوم ملكي بإنشاء مجمع ملكي للغة العربية تابعاً لوزارة التربية والتعليم في القاهرة والغرض منه:

1 – " أن يحافظ على سلامة اللغة العربية، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر

---

(1) ما بين القوسين منقول عن التقرير الرابع للمجمع.

الحاضر، وذلك بأن يحدد في معاجم أو تفاسير خاصة، أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتركيب.

2 – أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ن وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها.

3 – أن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية.

4 – أن يبحث كل ماله شأن في تقدم اللغة العربية مما بعهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية " وهو مؤلف من " أربعين عضواً عاملا يختارون من تقييد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية، أو بأبحاثهم في فقه هذه اللغة أو لهجاتها " وخمسة وعشرين عضواً مراسلا في مختلف البلدان الشرقية والغربية. ومن بين أعضائه العاملين اليوم ثلاثون عضوا مصريا، وعضوان أوربيان فرنسي وإنجليزي، وعضو عن المغرب، وعضو عن تونس، وعضو عن المملكة العربية السعودية، وعضو عن العراق. يرأسهم الأستاذ أحمد لطفي السيد. والمجمع يتألف من هيئتين: مؤتمر ويتكون من أعضائه جميعاً ويجتمع أربعة أسابيع متوالية في كل سنة. ومجلس المجمع ويتكون من الأعضاء المصريين ويجتمع مرة في كل أسبوع. وللمجمع مجلة تنشر ما يقره من البحوث اللغوية والمصطلحات العلمية صدر منها سنة عشر جزءا، والمجمع يبذل جهوده اليوم في وضع المعجم اللغوي الكبير، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات العلوم الحديثة. بعد أن وضع المعجم الوسيط في نحو ألف صفحة ونشره على الناس فقابلوه بالثناء وحسن التقدير.

المجمع العلمي العراقي:

تألف في بغداد على غرار المجمع العلمي العربي بدمشق.. ونشاطه مقصور على البحوث والمحاضرات، ونشر بعض المخطوطات.